الباب الثاني

فانون وقضايا العصر

تعرفنا في الباب الأول على ظروف النشأة التي أحاطت بفانون وكذلك على أبرز العوامل التي ساهمت في تكوينه ،وتعرفنا بذات القدر على السياق الحضاري الذي عاش في ظله وعلى أهم القضايا المثارة في عصره والتي فرضت نفسها على البشرية آنذاك.

وخلصنا إلى أن أهم ثلاثة قضايا معاصرة لتلك الفترة هي قضايا الاستعمار والتحرير الوطني والتنمية والتقدم ،وهي كما سنرى قضايا مترابطة متداخلة فالاستعمار كظاهرة يقود بالضرورة إلى مقاومته ومن ثم ظهور حركات التحرير الوطني ونجاح هذه الحركات في الحصول على الاستقلال يقود بالتالي إلى طرح الأسئلة حول أنسب السبل لتحقيق التقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية باعتبارها الغايات الأساسية التي ثارت من أجلها الشعوب.

وكما شغلت هذه القضايا مثقفي العصر فإنها فرضت نفسها بقوة على فانون الذي كان له إسهاماته الفكرية الجديرة بالدراسة ،و سنتناول هذه الإسهامات من خلال قراءة تحليلية لمضمون النصوص التي ضمنها كتبه واستخلاص رؤيته من خلالها ،وذلك في ثلاثة مباحث يتم تقسيمها على النحو التالي :

مبحث أول :ويتناول قضايا الاستعمار.

مبحث ثاني :ويتناول قضايا التحرير الوطني.

مبحث ثالث :ويتناول قضايا البناء والتقدم.

المبحث الأول

الاستعمار

خصص فانون معظم كتاباته للحديث عن القهر الاستعماري ولم تكن هذه الكتابات تقوم فقط بتوصيف الاستعمار وتفسيره أو توضيح الآثار السلبية التي يحدثها في المجتمع ولكنها عملت أيضا على تبيان كيفية التخلص منه وسبل مواجهته.

ففي أولى كتبه (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) والذي تم نشره في عام ١٩٥٢ يقوم فانون بتحليل الظاهرة الاستعمارية باعتباره محللا نفسانيا، ومكنه هذا التناول من إدراك الدور الذي يقوم به المستعمِر في مسخ المستعمَرين وتشويههم وتيسير خضوعهم له ،ومكنه ذلك أيضا من إدراك التأثير الذي يحدثه الخضوع للمستعمرين وكيف أن ذلك يهيئهم للإيمان بأهمية المستعمر وحتمية خضوعهم له ،وفي كتابه (معذبو الأرض)والذي تم نشره في عام ١٩٦١ قبل وفاته بأيام قليلة ،وهو نتاج خبرة عملية مستقاة من معايشته لواقع الممارسات الاستعمارية في الجزائر ،فإن فانون يركز على جملة الممارسات الدموية العنيفة التي مارسها الاستعمار الفرنسي والتأثيرات السلبية التي أحدثتها ممارسة العنف الاستعماري على البنية النفسية للجزائريين الذين تعرضوا لعمليات طويلة من التعذيب ، وفي هذا الشأن ومن خلال رؤية واقعية، لمس كيف أن العنف الاستعماري يمتد في تأثيره ليس لمن يقومون بالتعذيب فقط ولكنه يؤدى أيضا إلى تفكيك وتحلل في شخصية القائمين بالتعذيب أنفسهم.

وفي هذا المبحث سيتم تناول فهم فانون للاستعمار ورؤيته له وكيف تعامل معه وذلك على النحو التالي :

أولا : رؤيته للظاهرة الاستعمارية وتفسيره لها .

ثانيا : التأثيرات السلبية التي يحدثها الاستعمار .

ثالثا : كيفية المواجهة للاستعمار.

أولا : رؤية فانون للظاهرة الاستعمارية :

يرى أحد دارسي فانون " أنه في كتاباته– وباستثناء بعض شذرات متفرقة في كتابه معذبو الأرض وبعض مقالاته المجمعة – لم يشر إلى الأصول التاريخية لنشأة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية الحديثة ، وأنه تجاهل سؤال ؟ لماذا وقعت أفريقيا السوداء تحت السيطرة الأوروبية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر "[١].

ويرى باحث آخر فيما يعتبر ردا أو تفسيرا للملاحظة السابقة ،بأن فانون "لم ينشغل بالبحث عن أصل الاستعمار الاقتصادي أو السياسي وإنما تعامل معه كحالة يتم فيها التجرد من الإنسانية "[٢].

ووجهة نظرنا، أن ذلك التناول من فانون يجد تفسيره في أنه كان متأثرا بطبيعة دراسته للطب النفسي وطبيعة عمله وظروف التجربة التي عاشها فكان الاقتراب النفسي في رؤية الظاهرة وتحليلها هو الأكثر ملائمة،وهذه الملاحظة لا تنفي على أية حال ،أن فانون كان ذا نظرة شاملة للاستعمار،فهو يراه ا يتناول العلاقات الفردية وحسب ولكنه تنظيم سيطرة أمة على أخرى إثر الغزو العسكري[٣] ،وأنه عبارة عن قمع شعب بأكمله ،ويشمل ذلك فيما يشمل تشريب المجتمع الوطني الأصلي ولاسيما مناطق المدن منه بالنظام الاستعماري وقيمه [٤] ،كما أنه نفي منظم للآخر وإنكار كل صفة إنسانية عليه[٥].

وفي هذا السياق ستتناول رؤية فانون للأستعمار من خلال توضيحه لخصائص الاستعمار وصفاته والأطوار التي مر به.

(1) Jock McCulloch, **Black Souls White Artifact** (Cambridge: Cambridge University Press, 1983) P.137.

(2) Helmi Sharawi, **Afro Arab Times** (Cairo: Dar Elalam Elthalith, 2006) P.200.

(3) Fanon , **towards Af rican Revolution** ,Haakon,Chevalier (Traslator) **op.cit.,** p.81 ..

(4) David Caute , **Fanon** (London: Fontana, 1970) P.52.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٢٣٧.

١- خصائص الاستعمار وصفاته:

أ- يتميز الوضع الاستعماري بأنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا، ويتجلي هذا الانقسام واضحا على مستوي الجغرافيا من أن هناك مدنا ومدارس للأوروبيين لا يمكن الاقتراب منها، ومدنا أخري ومدارس أخري للسكان الأصليين، المدينة الأوروبية مترفة، متخمة، ساطعة بالأنوار، ومدينة السكان الأصليين مكدسة بالأكواخ والبشر مدينة جائعة راكدة والحدود الفاصلة بينهما هي لثكنات ومراكز الشرطة، هما مجتمعان منفصلان تماما وعالمان لا يلتقيان[١] والعلاقة بين المستعمِر والمستعمَر هي علاقة حدية إذ لا إتصال بين عالميهما، إن وجود أحدهما يعني ضرورة زوال الأخر ذلك "أن العمل الذي يقوم به المستعمِر هو أن يجعل حتى أحلام المستعمَر في الحرية أمرا مستحيلا، والعمل الذي يقوم به المستعمَرُ هو أن يتصور جميع الوسائل 'لممكنة لإباده المستعمِر"[٢].

ويري فانون أن هذا العالم المنقسم هو مسؤولية الاستعمار أساسا، أن هذا الانقسام قد ولد على مستوي التفكير إنقساما ثنائيا في ذهن المستعمر، فوجود الاستعمار يعني عنده موت المجتمع الأصلي وفناء ثقافته القديمة وتجمد الحياة، وأن الحياة لا يمكن أن تعود إلا من جثة المستعمر، فعالماهما متعارضان يخضعان لمبدأ النفي المتبادل،لا سبيل فيه إلى مصالحة "إن أحد الطرفين زائد يجب أن يزول"[٣] وعند هذه النقطة من الإدراك والوعي يكون من المنطقي أن يري فانون أن:

ب- النظام الاستعماري يستمد شرعيته من القوة "و لم يحاول في أية لحظة من اللحظات أن يراوغ في هذا الأمر الذي يتفق وطبيعة الأشياء"[٤].

والقوة بطبيعتها تستدعي العنف وتتطلبه، والعنف الاستعماري عنف منظم ومبرمج يُشكل جزءا من بنيه وطبيعة النظام الاستعماري ذاته وهو حتمي، ذلك أن الاستعمار وإن حاول في بعض المراحل أن يقوم ببعض الإصلاحات، بهدف تأمين وجوده ولتأخير نمو الوعي القومي فإنه يكتشف أنه لا يستطيع المضي في هذا الطريق

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٥٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٤.
(٤) المرجع السابق، ص ٨٤.

إلى مداه ، وإلا اضطر أن يقدم للمستعمرات ما لا يستطيع تقديمه في أراضيه نفسه، وأن هدفه من الاستعمار وهو استغلال الثروات لن يكون ذا مغزى، فلا يجد أمامه لتأمين وجوده وضمان استمراريته إلا انتهاج أسلوب العنف والقهر والإخضاع " فيعزز قوي الشرطة ويرسل فرق الجيش و"يقيم نظامًا إرهابيا يتلاءم مع مصالحة"[1].

ووصف فانون للاستعمار بأنه "ليس آلة مفكرة ، و ليس جسما مزودا بعقل ، إنما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوي"[2] ليس بعيدا عن واقع الممارسات الاستعمارية خاصة تلك التي عاشها ولمسها عن قرب في الجزائر إبان فترة الكفاح من أجل الاستقلال والنظام الاستعماري بالتالي وكنتيجة منطقية لهذا الانقسام الذي أوجده وأسلوب العنف في إخضاع السكان الأصليون لابد أن يكون النظام الاستعماري نظاما عنصريا،وبذلك نصل إلى السمة الثالثة المميزة للنظام الاستعماري.

ج- النظام الاستعماري نظام عنصري، والعنصرية من أهم القسمات المميزة له وهي "التي تهب المجتمع الاستعماري تماسكه"[3] ذلك أن العنصرية" تحول الأهالي إلى عبيد، يتم استغلالهم بأشد الأساليب تجردًا من الإنسانية ، والعنصرية ترسخ في ذهن المضطهَدين أن سبب اضطهادهم هو نتيجة لدونيتهم، ويؤدى ذلك بدوره إلى إضعاف قدرتهم على المقاومة"[4] بالعنصرية يتحول السكان الأصليين إلى أناس محجوزين "وليس التميز العنصري إلا شكلا من أشكال هذا الحجز في العالم الاستعماري أن أول شيء يتعلمه السكان الأصليون هو أن يلزموا أماكنهم ، وأن لا يتجاوزوا الحدود"[5]، وبهذا المعني فإن التفرقة العنصرية والفصل العنصري في جنوب أفريقيا هو تجسيد لهذا الانقسام الذي أوجده المستعمر،ويلاحظ فانون أن ما يقسم العالم إنما هو انتساب المرء أو عدم إنتساب إلى نوع معين وعرق معين[6].

(١) المرجع السابق، ص١٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص٦٤.
(3) Renate Zahar, **op.cit.**, P.19.
(٤) كوامي نكروما، م س ذ، ص ص ٢٨٣-٣٠٢
(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٥٥.
(٦) المرجع السابق، ص٤٥.

٢ - الأساليب التي يتبعها الاستعمار في مواجهة الشعوب المستعمرة:

ذكر سابقًا أن الاستعمار يتبع أقصى درجات العنف والقهر لضمان دوامه واستمراريته، ولكن إلى جانب سياسة العنف هذه فإنه يقوم باتباع بعض الأساليب التي من شأنها أن تعمل على تقويض مجتمع المستعمرات من الداخل أو إضعاف تماسكه ونتصادر على إمكانيات التحرك من أجل التحرر مستقبلا، وتهيئ للاستعمار أرضية للتواجد في المستعمرات بعد الاستقلال على شكل استعمار جديد وتوجز هذه الأساليب، كما رصدها فانون على النحو التالي:

أ-حصول بعض المناطق من البلاد المستعمرة على امتيازات على حساب مناطق أخرى[١].

بالإضافة إلى التفرقة التقليدية بين الريف والحضر فإن الاستعمار يتيح لبعض المناطق بعضًا من الثراء باكتشافه للموارد الطبيعية فيها وتنظيمه للاقتصاد على أساس تكامله مع اقتصاد البلاد المستعمرة فيحقق بذلك هدفين في وقت واحد.

أولهما: هو الإبقاء على المستعمرات في حالة دائمة من التبعية للدول المستعمرة حتى مع حصولها على استقلالها.

ثانيهما: هو خلق حالة من الانقسام والفرقة بين أولئك الذين يسكنون المناطق المزدهرة وأولئك الذين يعيشون في المناطق البائسة فتنبعث الحزازات وتنتعش الأحقاد القبلية وتثور النزعات الانفصالية ويضرب لذلك مثلا بانفصال إقليم كاتنجا الغني بالماس ويترتب على ذلك أن قضية الاندماج الوطني والتي تعاني منها الشعوب والدول لأفريقية تتجه أكثر نحو التعقيد بسبب هذه الممارسات.

ب- إثارة النعرات القبلية والعرقية[٢] ومحاولة خلق حالة من الانقسام بين طوائف لشعب

غالبا ما يلجأ الاستعمار إلى أسلوب فرق تسد، ففي أثناء فترة الخضوع للاستعمار يعمد إلى إتباع هذا الأسلوب لضمان السيطرة الكاملة، وفي فترة المقاومة والكفاح من أجل الاستقلال يعمل على إضعاف الاندفاعة الوطنية بإثارة النعرات

(١) المرجع السابق، ص١٥٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٥.

القبلية وتغذية التعصب العرقي فنجد الاستعماريين يتحدثون عن أفريقيا بيضاء و أفريقيا سوداء أو أفريقيا شمال الصحراء وأفريقيا جنوبها، وفي إطار الدين يعملون على تجزئه الشعب وإثارة الطوائف الدينية على بعضها البعض وفي نفس إطار هذه السياسة يعمل الاستعمار على خلق فئات من الناس ترتبط مصالحهم بمصالحه ويغدق عليهم فهناك دائما "كتلة من الرجال يمكن أن يحملها بؤسها الدائم وذلها وفقدان شعورها بالمسؤولية على النكوص" لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من النّاس دافعا لها من أجل ذلك ثمنًا كبيراً، إن الدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسة تتقاطر غزيرة على الكونغو ، وفي مدغشقر تدفع للخونة أجور طائلة وفي الجزائر ينضم إلى القوة الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين"[1].

ويعمل الاستعمار أيضا على خلق أحزاب سياسية تابعة وقيادات بديلة في مواجهة القوي الوطنية ويعرض التفاوض معها لخلق حالة من الانقسام بين القوي الوطنية ولمواجهة الاندفاعة القومية وتشتيتها ولتفريغ النضال الوطني من مضمونة٢ وغالبا ما يعتمد الاستعمار في ذلك على فئات من المثقفين الذين تشربوا الثقافة الاستعمارية وتبنوا قيمها منفصلين عن مجتمعاتهم.

ج- الغزو الثقافي :

وهو من أخطر الأساليب المتبعة ، فالاستعمار عاده ما يعزز إحتلاله وغزوه العسكري بغزو ثقافي يهدف إلى استئصال الشخصية المعنوية ، وأن يجرد المستعمر من أيه قيمه كانت له في تاريخه ويدخل في روعه أن العهد السابق عليه كان ظلاما وهمجية ووحشية.

ومن أخطر وأسوء آثار هذا الغزو الثقافي" هو ذلك الصراع الذي يتعرض له المستعمَر مابين ثقافته التقليدية التي نشأ عليها والثقافة الوافدة وقيمها التي تنعكس في حالة من عدم اليقين ومن القلق ...ويتفاعل المستعمَر مع هذا المأزق بعمليات تعويضية ومحاولات للتكيف تنتهي به إلى حد كراهية الذات"[3].

(١) المرجع السابق، ص١٣١.
(٢) المرجع السابق، ص٧٤.
(3) Renate Zahar, op.cit., P.35.

"وأن النتيجة الكلية التي تتبعها السيطرة الاستعمارية هي أن تقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام، وأن رحيل المستوطن الأوروبي سيردهم إلى الهمجية والوحشية والحيوانية"(١).

وذلك بهدف أن يطمس ماضيه وحاضره ويصادر بالتالي على مستقبله ويهيأه؛ لأن يتكيف مع الوضع الاستعماري قابلا له.

و يري فانون "أن عملية القضاء على الشخصية الثقافية ممثلة للجانب السلبي من عملية ضخم تهدف إلى الاستعباد الاقتصادي بل والبدني"(٢).

٣- المراحل التي يمر بها الاستعمار

بحسب تحليل Jock McCulloch (٣) فإن فانون يفترض أن هناك ثلاثة أطوار واضحة مميزة للاستعمار:

الطور الأول وأطلق عليه الطور الاستخراجي، وفيه كان الأوروبيون ينظرون إلى المستعمرات كمصدر للمواد الخام ،ويتم في هذه المرحلة تمويل الرأسمالية الأوروبية من التراكم الرأسمالي النّاتج عن عملية استنزاف موارد القارة.

الطور الثاني وهو الطور الاستهلاكي، وفي هذه المرحلة فإن المستعمرات قد استمدت أهميتها من كونها سوقا للسلع الأوروبية المصنعة ومجالا للاستثمارات الأوروبية التي زادت فوائضها كثيرا عن قدرة السوق المحلى على استيعابها، تلك الفوائض التي لم تكن لتتحقق لولا استغلال الثروات والمواد الخام في الطور الأول، وتتميز هذه المرحلة بالصراع من أجل الاستحواذ على الأسواق العالمية

الطور الثالث والأخير وهى المرحلة العليا من الاستعمار تتميز بالهيمنة المتزايدة لمناطق النفوذ الاقتصادي وحروب المنافسة الشرسة بين المجموعات المالية المتنافسة وتتزامن هذه المرحلة مع مرحلة الاستقلال القومي،

ووفقا لهذا التصنيف فإن فانون يرى أنه طالما أن التقدم الاقتصادي للدول

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١٩٩.

(٢) فرانز فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص١٣.

(3) Jock McCulloch, **op.cit.**, P.137.

الأوروبية يعتمد على الإبقاء على المستعمرات فإن أي حركة تحرر حقيقية تشكل خطراً شديداً على مصالحها.

وبحسب تحليل Jock McCulloch فإن المرحلة المعاصرة من الإمبريالية هي نفسها ما أسماها فانون المرحلة العليا من الاستعمار ،ويرى أنها محكومة بنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية وذلك لأسباب جوهرية تتعلق بالنظام الاقتصادي الأمريكي الداخلي حيث تواجه أمريكا قصورًا في ناتج استثماراتها الرأسمالية في فترة ما بعد الحرب مباشرة ، مما يدفعها صوب الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ،ويذكر McCulloch أن ذلك يؤدى بأمريكا إلى دعم الأنظمة القمعية التابعة لها.

وهذا المستوى من التحليل لمراحل العملية الاستعمارية يبدوا واضحًا فيه أن وجهة النظر كانت تتجه لرؤية هذه المراحل من زاوية النظر للممارسة الاستعمارية ،ولكن للاتساق مع التوجه العام للدراسة فإن هناك إمكانية أخرى للنظر من زاوية معاكسة تمامًا ، وهى زاوية حركة الشعوب ، ومقاومتها ، فمن هذه الزاوية يمكن رصد ثلاثة مراحل من العملية الاستعمارية متوازية مع التحليل السابق .

المرحلة الأولى وهى مرحلة الغزو، وتستخدم فيها القوى الاستعمارية أشد أنواع العنف والبطش للتغلب على مقاومة السكان الأصليين وإخضاعهم.

المرحلة الثانية وهى مرحلة يتم فيها السيطرة الكاملة على المستعمرات ، وفيها تخمد حركة المقاومة إلا من بعض انتفاضات متفرقة ،ويتحقق في هذه المرحلة عملية النهب الاستعماري لثروات البلاد المستعمرة واعتبارها أسواقا جديدة مفتوحة لمنتجات الدول الأوروبية.

المرحلة الثالثة، وهى مرحلة الكفاح الوطني من أجل الاستقلال وتستمر هذه المرحلة إلى ما بعد الحصول على ما اعتبره فانون أنه في كثير من الحالات استقلال شكلي ، وفي هذه المرحلة يوائم الاستعمار أساليبه ويتحول من احتلال عسكري مباشر إلى سيطرة غير مباشرة فيسلم السلطة لقوى حليفة له مع احتفاظه ببعض القواعد العسكرية وربط معظم الدول المستقلة حديثا باتفاقيات ومعاهدات عسكرية و اقتصادية تتيح لدول المراكز الاستعمارية مواصلة استغلالها لدول العالم الثالث في إطار من عمليات التبادل الغير متكافئ أو من خلال التحكم في أسعار المواد الأولية وتخفيضها مع زيادة أسعار السلع الأوروبية المصنعة،وهذه المرحلة هي ما يطلق عليها

الاستعمار الجديد والذي يعمد إلى أتباع آليات اقتصادية للسيطرة عن طريق إغراق الدول الأفريقية بالديون ، ثم فرض سياسات اقتضادية عليها كشرط لاستمرار الإقراض على نحو ما حدث مع الدول الأفريقية ودول العالم الثالث منذ ثمانينات القرن الماضي بفرض ما اصطلح على تسميته بسياسات التثبيت والتكيف الهيكلي وحرى بالذكر أن هذه المرحلة من الكفاح الوطني لا تتوقف بمجرد حصول الدول على استقلالها السياسي ولكنها تمتد وصولا لحصول الشعب على حقوقه الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق تقدمه وإحداث تنميته الاقتصادية.

ثانيا : التأثيرات السلبية للاستعمار:

السيطرة الاستعمارية في رؤية فانون لها هي سيطرة شاملة كلية وبالتالي فإن انعكاساتها السلبية على المستعمرات تشمل هي الأخرى كل نواحي الحياة فلها تأثيرها على المواطنين والأفراد ويمتد التأثير ليطال البنية الاجتماعية ويعمل على هدم الوجود الثقافي للشعب المستعمر.

ولقد أفرد فانون في كتابه (معذبو الأرض) فصلا كاملاً بعنوان "الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية" أوضح فيها التأثير المدمر على شخصية كلٍ من السكان الأصليين الذين يتعرضون لأهوال العنف الاستعماري والتعذيب الوحشي وذلك التأثير السلبي على شخصية من يقومون بالتعذيب وكيف أنهم يعانون من اضطرابات نفسية وتفكك في الشخصية، ويتم في هذا المطلب تناول التأثيرات السلبية للاستعمار على مستوي الأفراد والبنيات الاجتماعية وعلى الثقافة والوجود الثقافي للشعب المستعمر وذلك على النحو التالي:

الأفراد:

يبدأ فانون من واقع أن الاستعمار من حيث هو نفي للآخر فهو ينفي كل صفة إنسانية عنه ويجرده من كل مقومات الوجود الإنساني ويمارس قدرا هائلا من العنف ليفرض السيطرة الكاملة على المستعمرات. وعلى هذا فإن المستعمِر يثير في المُستعمَر غضبا لا يستطيع التعبير عنه وهذا الغضب المكبوح يؤدي بدوره إلي توترات عضلية ونفسية وتصبح " الحياة الانفعالية لدي المستعمر تجري كالجرح النازف وتفرغ

شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض علماء النفس يقولون عن المستعمَر إنه إنسان مصاب بالهيستيريا"[1] ويلجأ المستعمر الخاضع والمقموع والمتوتر انفعاليا وعضليا للتخفف من هذه الأثقال إلي سلوك هروبي فنجد أن عداءه بدلاً من أن يتجه لمواجهة الاستعمار فإنه يتجه إلي أن يعبر عن نفسه ضد مواطنيه أنفسهم، فتنشأ من حين لآخر المعارك القبلية والنزاعات بين الأفراد " فإن المستعمر حين يخوض معارك الثأر إنما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له"[2].

إن المعارك التي تدور بين القبائل إنما هي تدمير للذات، وهذا التدمير هو إحد الطرق التي بها يتحرر المستعمر من توتر عضلاته[3]. ويلجا المستعمر في أحيان أخري إلي الدين فبواسطة الإيمان بالقدر يجرد المضطهدين من المسؤولية ويبرر خضوعه ليحقق بذلك توازنا داخليا،أو يلجأ إلي الخرافات والأساطير، فتبدو له القوي الغيبية السحرية قوى جبارة تبث فيه الرعب وتصغر إزاءها قوى الاستعمار ولا تكون مشاكله أن يصفي أمره مع العالم الاستعماري؛ لأن أعدائه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شيء ، وتنحل الأمور كلها في معارك دائرة على مستوي الوهم والخيال.

ويري فانون " أن على كل دراسة تتناول العالم المستعمر أن تعني حتما بفهم ظاهرة الرقص والمس، إن المستعمر يفرج عن نفسه في هذه الحفلات الصاخبة ويجد العنف مجاري وسبل إلي التحول والتلاشي، فجلسات المس والتحرر منه بما تعنيه من تفتيت وازدواج وتحلل والشخصية تقوم بوظيفة أساسية في تأمين السكون في العالم المستعمر.

عند هذا المستوى من التحليل الذي يتناول الحياة الانفعالية الداخلية لدي المستعمر بفعل تأثير العنف الاستعماري عليه نجد أن أخطر التأثيرات الاستعمارية لدي الفرد تكون في:

تدمير البناء الشخصي للفرد وإحداث ما سبق الإشارة إليه من تفتيت وتحلل في الشخصية، وهذا بدوره يكرس استمرارية خضوعه، ويقلل من إمكانية قدرته على مواجهة الاستغلال الاستعماري الذي هو الهدف الأساسي للاستعمار.

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٦٠.
(٢) م س ، ص٥٧.
(٣) م س ، ص٥٨.

كون أن العنف في أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ ويستنفذ في خصومات يقتتل فيها الإخوة وتتنازع فيها القبائل ذلك يؤدى بدوره إلي ضعف التماسك الاجتماعي و الوطني.

ترسيخ قيم التخلف والركون إلي الاعتقاد بقوى غيبيه سحرية، تعوق انطلاق المستعمر و تعيق قدرته وإرادته على مواجهة مشاكله الحقيقية مع المستعمر.

السلوك الهروبي في المواجهة يؤدي بالمستعمَر إلي وجود وانتشار ظاهرة الجريمة: حتى لقد قال البعض " إن الجزائري مفطور على الجريمة وأنشؤوا لهذا نظرية"[1]، ويعزو فانون النسبة العالية من الجريمة إلى الحالة الاستعمارية نفسها ؛لأنه نتيجة للضغط الغير محتمل على المستعمَر عبر فترة طويلة تنشأ عدوانية مكبوتة تؤدى إلى انفجار غير مسيطر عليه يتوجه في البداية ضد المواطنين أنفسهم[2].

وبصرف النظر عن التفسيرات والتبريرات التي حاول الأطباء بها تفسير الظاهرة بما يتفق والتوجه الاستعماري إلا أن الملاحظ أن "جرائم الحق العام كادت تختفي منذ عام ١٩٥٤"[3] وهذا ما يعني في فهم فانون أن انتشار الجريمة يؤوّل بوجود الاستعمار و أن ما يسند إلي الجزائري من ميل للجريمة ومن عنف في القتل، ليس إذن ثمرة بنيان جملته العصبية، ولا صفة أصيلة من صفات طبعه ، وإنما هو نتيجة مباشرة للاستعمار[4]. وفي نفس السياق فإن الأذى الذي يصاب به المستعمر ليس وقفا عليه وحده ، ولكن الاضطرابات النفسية تطال أيضا فريقا من الرجال الاستعماريين هم هؤلاء الذين يقومون بالتعذيب ويورد فانون في الجزء الخاص بالحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية عددا من الحالات المشاهدة لفرنسيين يعالجون من اضطرابات تتعلق بطبيعة عملهم في تعذيب الجزائريين، وفيها يسرد قصة مفتش البوليس الذي وصل به الأمر إلي ضرب زوجته وأولاده ولم يسلم من ذلك حتى ابنه الصغير الذي لا يزيد عمره عن عشرين شهرا يضربهم بوحشية نادرة ويقول عن نفسه : إنني إذا صادفت معارضة ما أحسست برغبتي في الضرب ، حتى خارج عملي أتمنى أن أعذب من يعترض طريقي . والطريف أنه لجأ طالبا للمساعدة

(١) م س ، ص٢٥٧.

(2) Renate Zahar, **op.cit.**, P.54 (

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ ، ص٢٨٨.

(٤) م س ، ص٢٩١.

في أن يستطيع أن يعذب الجزائريين دون أن يصاب باضطرابات في السلوك، أي يعذبهم بهدوء وجأش رابط[١].

ويستمر فانون في سرد قصص أخرى لمرض آخرين يعانون أعرضا مختلفة، وتؤكد كلها أن جرائم التعذيب التي يقوم بها الأفراد تؤثر على سلوكهم وتصل بهم إلي تحلل وتفكك شخصياتهم هم أيضا. ولعل هذا هو السبب الذي يدفع بعض الديمقراطيين الفرنسيين إلي رفض سياسات العنف المتبعة، ويفسر ذلك بأنه ليس رحمة بالجزائريين ولكنه خوفا على جيل من الشباب الفرنسيين أن يصاب بالسادية وبالأمراض النفسية المختلفة.

ويخلص فانون في دراسته للظواهر التي عاينها أثناء عمله كطبيب نفسي في مستشفي بليدة أن" في مرحله الاستعمار الذي لا يستنكره نضال مسلح حين يتجاوز مجموع المتهيجات الضارة حدا معينا تنهار المواقف الدفاعية للمستعمرين... وفي هذه المرحلة من الاستعمار المنتصر نري مقدارا مضطردا من الأمراض يحدثه الاضطهاد إحداثا مباشرا .. وأن الحرب الاستعمارية هي الحادث الذي يطلق المرض"[٢].

ويصل من ذلك إلي نتيجة حاسمة بلورها" منذ عام ١٩٥٤ في بحوث علمية مختلفة في صعوبة شفاء المريض من المستعمرين شفاءا سليما، أي جعله متجانسا تاما مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعماري[٣].

تأثير الاستعمار على البنيانات الاجتماعية[٤]:

تاريخيًا فإنه مع المراحل الأولى للاستعمار فقد عمل الاستعمار على تدمير الأبنية التقليدية القائمة سواء كانت أبنية اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، فسياسيا

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٣٨-٢٣٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٤) عن تأثير الاستعمار على البنيات الاجتماعية للدول المستعمرة ومزيد من فهم حالة الإستلاب والاغتراب التي يتعرض لها المستعمَر، انظر

Renate Zahar, **op.cit.**, PP.5-7 ,PP.74-75.

تم تقويض السلطة القائمة أو احتوائها للتعاون مع المستعمر واجتماعيا تم تفكيك كل الروابط التقليدية القائمة واقتصاديا فقد كان النشاط الاقتصادي السائد يعتمد على الزراعة البدائية والرعي والصيد، فتم انتزاع ملكية الأراضي الجيدة من المزارعين وإعطاؤها المستوطنين البيض وفرض على الفلاحين زراعة بعض المحاصيل النقدية المعينة بغرض التصدير فتغير هيكل الإنتاج تمامًا ومن ثم تغير هيكل الاستهلاك فلم يعد الفلاح يزرع ليأكل وإنما كانت زراعته بهدف التصدير وأصبح هناك قصورا في تغطية الاحتياطات الأساسية للسكان فكان أن ظهر نمط جديد من الاستهلاك للسلع المصنعة المستوردة.

وكما أن للاستعمار دوره السلبي على مستوى الأفراد والبناء الاجتماعي فإن دوره السلبي يمتد ليطال البناء الثقافي للشعب المستعمر،بغية تجريده من كافة العناصر التي تدفع به للمقاومة،وهذا الجانب من جوانب التأثير الاستعماري سيتم التعرض له بالدراسة في مواضع أخرى من هذه الدراسة.

ثالثا: كيفية وأسلوب المواجهة

يؤمن فانون أن الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالإقناع وأن التحرر من الاستعمار لا يكون إلا بالعنف ويذهب إلي أن الأقطار التي حصلت على استقلالها بالطرق السلمية "وقعت في قبضة طبقة برجوازية لا تقل برجوازية وشوفينية عن الطبقة البرجوازية الفرنسية التي كانت قائمة في عهد الثورة الكبرى"[1].

ووفق هذا الفهم احتل العنف مساحة كبيرة من الإسهامات الفكرية لفانون، ويعود ذلك إلي تجاربه التي خاضها، فقد عايش فانون تجربة الحرب والتي لا شك أنها شكلت فهمه للعنف، فقد خاضها وهو ما زال شابا لا يزيد عمره عن سبعة عشر عام، فهزته بشدة وطهرته من المثالية التي كان عليها حينما التحق بقوات فرنسا الحرة، والتجربة الأخرى التي عايشها فانون هي تجربة العنف الاستعماري الذي يواجه به المستعمرون الشعوب المستعمرة، ففي أثناء عمله بمستشفي بليدة للأمراض العقلية ثم مشاركته في فعاليات الثورة الجزائرية بعد انضمامه إليها، لمس عن قرب نتائج

(1) David Caute, **op.cit.**, P.60.

العنف الاستعماري، ورأي بنفسه تداعياته وأثره على ضحاياه وعلى من يمارسون أعمال العنف نفسها، وكان طبيعيا أن يقوم فانون كطبيب نفسي بتحليل طبيعة العنف المكبوت في داخل المستعمر ويصفه ويحلله بعمق[1].

واتسمت نظرة فانون إلي العنف بالواقعية لكونها ناتجة عن رؤية مباشرة ومعايشة لواقع حي من الممارسات العنيفة ولا تعود إلى فكرة نظرية "فلم يشر فانون في الدراسات التي وضعها عن العنف الجماعي إلي الحجج المختلفة المتوفرة في الحركة الماركسية بل كانت الجزائر وأفريقيا هما المصدرين الذين حددا نظرته إلي العنف مستمدا هذه النظرة من مشاهداته المباشرة في هذه المناطق[2].

لذلك لم يكن غريبا أن يتخذ فانون العنف موضوعا أساسيا في كتابه "معذبو الأرض"؛ لأن العنف الذي يدافع عنه هو "نتاج لأكثر الحروب دموية لنهاية الاستعمار الفرنسي[3].

وأهمية هذا الكتاب تنبع من أن فانون يوضح فيه أن المستعمر هو المسؤول عن ثقافة العنف بخلقه مناخا عاما من الممارسات العنيفة الوحشية، ولا يكتفي فانون بتشريح بنية العنف الاستعماري ولكنه يشرح أيضا الكيفية التي يجب بها مقاومته، فالعنف عنده ليس عنفا مجردا ولكنه يرتبط بالظاهرة الاستعمارية" "فالعنف والاستعمار يمضيان معا يدا بيد" [4] فالاستعمار في نظره مرادف للعنف السياسي والعسكري والثقافي والنفسي ومن ثم فلا يمكن أن يقضي عليه إلا عنف مماثل و معاكس في جميع المجالات، ولذلك فإن " نشوء عنف مناهض للاستعمار هو شيء يتناسب مع مدي القمع الذي يمارسه نضام الحكم الاستعماري المرفوض[2].

والمفهوم الأساسي لنظرية فانون عن العنف يستند إلى أن الضغط الذي يتعرض له المستعمَر بواسطة النظام الاستعماري فانه يتوجه أولا إلى أهل البلد والمواطنين أنفسهم وفي سلوك اغترابي يتصرف المستعمَر ضد كل مصلحته ولكن مع بدء المقاومة الشعبية وتنظيمها وتسييسها فان العنف يتوجه إلى العدو الحقيقي ويفقد

(1) David.Macay, **op.cit.,** P.2.
(2) David Caute ,**op.cit.,** P.81.
(3) David Macay, **op.cit.**, P.2.
(4) David Caute, **op.cit.**, P.81.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٨٩.

سلوكه الإجرامي ويصبح أداة فعالة في التحرر والانعتاق ومقاوما للاغتراب.[1]

والفكرة الأساسية التي يدور حولها كتاب " معذبو الأرض" هي أن العالم الاستعماري الذي قام على العنف لا يمكن الخلاص منه إلا بالعنف، فهو السبيل الوحيد التي يجب أن يسلكها المستعمرون للتحرر من المضطهدين الذين يتشدقون بالكلام على الحرية وعلى الإنسان.

والعنف عند فانون ليس غريزيا ولكن له سماته وله وظيفته.

١- خصائص العنف وسماته :

العنف عند فانون ليس عنفاً للعنف، وليس عنفاً مجردا، وهو عنف مفروض تفرضه الضرورة حيث لا خيار آخر أمام المحتلين للحصول على الاستقلال والحرية بدونه، وهو عنف ثوري وإيجابي وبناء في نفس الوقت وهو عنف جماعي وليس فرديا وهو في المحصلة عنف مشروع.

وكون أن العنف ليس عنفاً مجردا فذلك: لأنه يهدف إلى خلق الإنسان الجديد، ويوضح سارتر ذلك في مقدمة كتاب (معذبو الأرض) قائلًا: " لسوف يوضح لهم فانون توضيحا كاملا أن هذا العنف ليس يقظة غرائز وحشية... و لا هو ثمرة حقد.. إن الإنسان يشكل نفسه تشكيلا جديدا.... والمستعمر يشفي من عصاب الاستعمار بطرد المستعمر بالسلاح. إنه حين ينفجر حقده يسترد شفافيته المفقودة.. إن هذه الحرب تؤدي بذاتها إلى تحرير المقاتل بالتدريج. فهي تزيل من نفسه ومن خارج نفسه ظلمات الاستعمار شيئا بعد شيء ... حين يقبض الفلاحون على البنادق فإن جميع الخرافات تبهت ألوانها وإن جميع الممنوعات تنهار واحدة بعد الآخر إن سلاح المقاتل هو إنسانيته"[1]. وهو لذلك عنف مشروع ومبرّر ومن ناحية أخرى فهو عنف إيجابي وبنّاء؛ لأنه" أداة قلب أوضاع الظلم السائدة"[2]، ومع تسييس المقاومة الشعبية وتنظيمها فان العنف يفقد سلوجه الإجرامي ويتجه إلى العدو الحقيقي ويصبح أداة

(1) Renate Zahar **op.cit.,** P.56.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٢٩.

(3) David Caute, **op.cit.**., P.34.

فعالة في التحرر والانعتاق ومقاوما للاغتراب[٣].

وأن يكون العنف مفروضاً فذلك يعود إلى أن " تغيير المستعمر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر.. وإنما هو تأكيد عنيف لأصالة تفرض مطلقة"[١] . ويصل فانون إلي نتيجة مؤداها " أن في الكفاح المسلح شيئا نصح أن نسميه – نقطة اللاعودة- بعدها نستطيع أن نقول: أن الأمر الذي يحقق الوصول إلي هذه النقطة هو أعمال القمع الواسعة التي تشمل جميع قطاعات الشعب المستعمر"[٢] ،وعلى ذلك فان الاضطهاد الاستعماري هو الذي يفرض على المستعمَرين والمضطهَدين ومعذبو الأرض أن يحطموا الواقع الاستعماري وينتزعوا حريتهم بكل الطرق الضرورية بما فيها استخدمهم العنف.[٣]

واعتبار العنف ضرورة يعود إلي أن العنف المكبوت داخل المستعمَر هو عنف مدمر للذات والخلاص منه يمر بتحويله إلي عنف إيجابي ضد المستعمِر.

وهو أيضا عنفٌ ثوريٌ؛ لأن النضال المسلح هو من بين أدوات تحقيق الحرية ويستخدم كخيار أخير في حال فشل البدائل السلمية و كل الخيارات الأخرى كما كان واقع الحال في فيتنام والجزائر[٤] .

وهو عنف إيجابي وبنّاء؛ لأنه في اللحظة التي يمارس فيها المحتلون العنف ضد محتليهم فإنهم يحققون أنفسهم من خلال مواجهتهم للعنف الاستعماري

كما أنه ليس فرديا، فمن المؤكد أن المقاومة المسلحة المضادة للاستعمار والعنف الجماعي لحركة التحرير، ليس مجرد مجموع العنف الفردي لبعض الأعضاء المقاتلين[٥] لكنه عنف جماعي يقوم به أفراد الشعب في سياق حركة التحرر الوطني ومقاومة الاستعمار" العنف وحده، العنف الذي يلتزم به الشعب، هو الذي يجعل في إمكان الجماهير أن تفهم الحقائق الاجتماعية ويعطيها مفتاح تلك الحقائق[٦] . والعنف

(1) Renate Zahar, **op.cit.**,P.56.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٤٦.

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٩٠.

(4) Jose da mota-lopes,**op.cit.**, P.49.

(5) **Idem.**

(6) **Ibid**, P.53.

(٧) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١١٨.

على نطاق الشعب هو الذي يصهر القبلية والإقليمية ويشد أبناء المجتمع بعضهم إلى بعض ملزما كل فرد بواجبه نحو نفسه ونحو الآخرين"[١].

وهو عنف مشروع ومبرر ويستمد شرعيته من كل السمات والخصائص التي كما وُضِّحتْ سابقا، فكونه ليس مجردا ومفروضاً وضرورةٌ وإيجابيا وبنّاءاً وجماعيا فذلك يعطيه بالبداهة مشروعية تنبع من خصائصه الإيجابية في مجملها، وإلى جانب ذلك يستمد العنف شرعيته الأساسية من كونه دفاعاً عن النفس، فمن المعترف به أنه في حالات محددة ومنها حالة الدفاع عن النفس سواء كان ذلك يتعلق بفرد أو أمة فإن اللجوء إلى العنف يصبح خياراً جائزاً ومشروعاً، وإقرار فانون بمشروعية العنف ينبع من أنه رد فعل لحالة القمع الاستعماري[٢].

٢- أهداف العنف ونتائجه:

وكون أن العنف كما يراه فانون ليس غريزيا وليس عنفا من أجل العنف فإن له عدة أهداف يمكن إيجازها على النحو التالي:

فهو يستخدم في قلب أوضاع الظلم وبالعنف "يكتشف المستعمَر الواقع ويبدله ويعمل في سبيل التحرير"[٣]، ومن خلال النضال يقيم مجتمعاً فعالاً وعلاقات اجتماعية أكثر فاعلية وإنسانية تؤدى إلى تأسيس نظام اجتماعي جديد وعادل[٤].

وهو وسيلة للتطهر والخلاص من الخرافات ومن العنف المدمر للذات "إننا نشهد في أثناء الكفاح التحرير بُرء المجتمع من أمراض هذه الطقوس (السحر والشعوذة) إن المستعمر يحمل الآن رشاشة بيده ويقاتل القوي التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه أعني قوى الاستعمار"[٥]، ويزكى فانون العنف لأسباب تفوق مجرد ضرورة الدفاع عن النفس أو إزاحة الأنظمة الاجتماعية الفاسدة ولكنه يراه

(١) David Caute, **op.cit.**, P.84.
(2) Messay Kebede, **op, cit.**, P.539.)

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٦١

(4)Messay Kebede, **op, cit.**, P.554.

(٥) فانون. معذبو الأرض، م س ذ، ص ٦١

علاجاً ضروريا للأمراض الثقافية الناتجة عن الخضوع للمستعمر فالاستقلال والكرامة لا يمكن استعادتهما ما لم ينخرط المستعمر في العمل العنيف[١].

ج- وهو يعجل نمو الوعي القومي " إن أعمال القمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب بل تعجل نمو الوعي القومي إن النوازل في المستعمرات إنما تعزز الوعي الذي أخذ ينمو"[٢]. والعنف يرفع الشعب إلي مستوي القائد ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها"[٣].وفي نفس الاتجاه يري كوت أن" العنف يعيد بناء الوعي "[٤].

د- ويؤدي إلي تماسك المجتمع "فإن الكفاح العنيف يجمع الأفراد إذ أن كل واحد منهم يصبح حلقة في السلسلة الكبرى... إن الكفاح المسلح يعبء الشعب ...إن النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية و لكن العنف يوحد بين الأفراد على الصعيد القومي وهو لذلك يحمل في أرحامه بذور القضاء على الإقليمية والقبلية"[٥].

هـ- والعنف يبدل القيم " إن هذه القيم التي يلوح أنها تسمو بالنفس، يتضح الآن أنها لا فائدة منها أولا لا جدوى فيها؛ لأنها لا تتصل اتصالا مباشرا بالمعركة المحسوسة التي يقودها الشعب، والفردية تأتي في طليعة هذه القيم... فقضية كل فرد من الأفراد لن تكون عندئذ إلا قضية جميع الأفراد، فإنهم أما يكتشفهم جنود الاستعمار فيقتلوهم جميعا وأما أن ينجوا جميعا إن نجاه الفرد بنفسه في الميدان هو أمر مرفوض"[٦]. ويري أن" التجربة الفردية متي كانت قومية متي كانت خيطا في نسيج الوجود القومي لم تبق محدودة ضيقة بل أصبحت قادرة على أن تطل على حقيقة الأمة"[٧].

---

(1)Messay Kebede ,**op, cit**,.p.539

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ ص ٧٣.

(٣) م س، ص٩٢.

(4) David Caute, **op.cit.**, P.85.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٩٢.

(٦) المرجع السابق، ص٥٢..

(٧) المرجع السابق، ص١٨٨.

وخلاصة القول:

" إن العنف يطهر الأفراد من السموم أنه يخلص الفرد من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فسادا، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس إنه يرد إليه شجاعته ويرد إليه اعتباره في نظر نفسه"[١]

٣- المراحل التي يمر بها العنف:

العنف من وجهة نظر فانون يقوم على مرحلتين،

يبدأ تلقائيا في المرحلة الأولى كرد فعل على الممارسات الاستعمارية وهو في هذه المرحلة غير منظم ولا يتضمن مفهوم سياسي ويتجه إلي أن يتعامل مع مرحلة الاغتراب التي يعيشها المواطن الأصلي.

وفي المرحلة الثانية فإنه يتخطي العفوية والتلقائية ويتحول العنف التلقائي ويصبح عنفاً منظماً وعاقلاً على يد قادته ويفتح الطريق أمام الجماهير لفهم الحقائق الاجتماعية[٢] كما أنه يكون متداخلا مع الثورة الاجتماعية وممتداً إلي مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي الشكلي ويغير من الأبنية الاستعمارية الرأسمالية التي تسبب الاستلاب.

و طبقا للاقتراب النفسي الاجتماعي الذي ينتهجه فانون، فإنه يكرس اهتمامه بشكل مباشر إلي المرحلة الأولى من العنف[٣] .وهي المرحلة التي يتم فيها استنهاض الوعي الثوري فالرجل المستعمر يجد نفسه وحريته في العنف ومن خلاله[٤] .

وفي المرحلة الأولي من العنف حيث تفتقد الرؤية السياسية والإستراتيجية يكون للعنف في هذه المرحلة وظيفة نفسية اجتماعية. والعنف التلقائي هو شرط ضروري للانتقال إلي مرحلة النضال التحرري المنظم وهو بمثابة الإعداد النفسي للمستعمرين من أجل البدء في النضال التحرري الذي لابد من أن ينظم ويسيس إذا

(١) المرجع السابق، ص٩٢

(2) José da Mota-Lopes, **op,cit,.** P.5٤.

(3) Renate Zahar, **op.cit.**, PP: 80- 82.

(٤) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٨٦

ما أريد له أن لا يجهض في المهد مثله مثل كل الثورات الكثيرة المتقطعة ضد الاستعمار[1].

وللدخول في المرحلة الثانية من العنف المنظم يلزم لذلك شرط ضروري وهو توفر الوعي "؛ لأنك يمكن أن تستمر لثلاثة أيام وربما لثلاثة أشهر بدافع الاستياء أو الغضب ولكنك لا تكسب حرباً ولا تتخلص من ماكينة العدو الرهيبة ولا أن تغير السلوك الإنساني، إذا لم ترفع وعي المقاتلين"[2].

٤- موقف الأحزاب والقوى الأخرى من العنف

يعتبر فانون أن الأحزاب السياسية البرجوازية تستبعد فكرة العنف بل وتخشاه؛ لأن هذه الأحزاب لا تهدف إلي قلب الأوضاع التي أوجدها الاستعمار ولا تطمع في أكثر من الاستيلاء على مقاليد الحكم من يد المستعمر وكل ما تريده هو أن تفاوض المستعمر لتنتهي معه إلي تسوية فهي أحزاب إصلاحية لا تأخذ مواقف جذرية ضد الاستعمار، هي أحزاب تعمل فقط من أجل تحسين الأوضاع المعيشية ومن أجل التمثيل الانتخابي، ويري أيضا أن مصالح البرجوازية المحلية تلتقي مع مصالح البرجوازية الاستعمارية وأن العنف يحمل تهديدا لمصالحها وفي هذه الحالة فإنها تبادر إلي تسوية تضمن مصالح الطرفين، وتبدأ دعوة اللاعنف وبذلك " يكون اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أي حركة لا سبيل إلي تداركها"[3].

وفيما يخص المثقفين يري فانون أن هناك فئة من المثقفين تشربوا الثقافة الاستعمارية وارتبطت مصالحهم بالوجود الاستعماري ويعتقدون أن عنف الجماهير ليس هو السبيل الأجدى، ويرون في الأساليب العنيفة سلوك يأس وانتحار، هم عاجزون، ويبررون عجزهم بافتراض أن للعنف شروطه التحضيرية وأدواته غير متوافرة في مواجهة قوة المحتل، " إن دبابات العدو وطائراته المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكانا كبيراً إنهم يشعرون بالعجز[4].

(1) Renate Zahar, **Op.cit.**,P.84.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ١٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٦١.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٦.

ما تم استعراضه سابقا هو رؤية فانون للعنف ودوره في معارك التحرر من الاستعمار موضحاً فيه سمات العنف وأهدافه وتطوره وموقف الفئات الاجتماعية منه فماذا عن فانون نفسه هل يمكن أن يقال أنه إنسان عنيف بطبعه ، الرد على ذلك نجده عند إيمي سيزير الذي عرف فانون جيدا حين قال عنه:"إن عنفه بدون مفارقة هو عنف رجل غير عنيف ، وأنه عنف العدالة وتطهير النفس"[1] .

وللتدليل على طبيعته غير العنيفة يكتب كوت :" ..يقال أنه أثناء الفترة التي قضاها فانون في الدراسة في جامعة ليون كانت يده ترتجف دون أن يتمكن من السيطرة على حركاتها عندما كان يقوم بتشريح الجثث[2] .

وخلاصة القول: فإن فانون كان يري ضرورة التصدي؛ لإنهاء الاستعمار ومن واقع الخبرة المعاشة فإنه لم يكن ممكناً الوصول إلي التحرر والاستقلال إلا بالمواجهة العنيفة للاستعمار فهي السبيل الوحيد الممكنة والضرورية؛ لإنهائه.

٥- نظرية العنف بين فانون وناقديه

تناول عدد من قارئي ومحللي وناقدي فانون، فكرة العنف التي طرحها باعتبارها فكرة مركزية في أعماله، وإذا كانت القراءات المختلفة لأعماله تسمح باقتراب متعدد الأبعاد،إلا أنه بحسب أحد الباحثين[3]، فإن قراءة فانون من هذه الزاوية كانت قراءة انتقائية تعزل بعضا من أفكاره عن نصوصه وأفكاره الأخرى مما يؤدى إلى نتائج غير متوقعة وغير صحيحة،وهذه القراءة الانتقائية تتجه في مجملها إلى تجاهل كل ما يتعلق بشكل مباشر وغير مباشر بخبرة فانون الحياتية وافتراضاته ومدركاته وأهدافه في تحقيق مستقبل أفضل وأكثر عدلا، كما شرحها وقدمها هو نفسه، وكذلك تجاهل مرجعية الزمان والمكان في كتاباته، وهذا التجاهل للسياق والبيئة زمنيا ومكانيا يعتبر قصوراً منهجياً يترتب عليه الوقوع في أخطاء في الفهم والتحليل، ذلك أنه تم إغفال قسمتين أساسيتين لأعمال فانون لم تؤخذا في الاعتبار.

أولهما : أن معظم ما كتبه فانون كُتِب في سياق حركة تحرير وطني تخوض

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.85.
(2) David Caute, **Op.cit.**, P.88.
(3) José da Mota-Lopes, **op.cit.**, P 46.

نضال مسلح من أجل تحرير الجزائر وبالتالي فإن أفكاره حول العنف والاستعمار والتحرير الوطني هي انعكاس لتجربة معاشة في سياق خاص بتجربة المواجهة المسلحة،وفانون كأحد المشاركين في النضال مع جبهة التحرير الوطني الجزائري وكادراً وممثلاً للحركة في تونس والجزائر فإن أعماله يجب أن تقرأ ليس كفكر نظري عن الطبيعة الاستعمارية ولكن أيضا كنتيجة لخبرة شخصية شاملة.

وثانيهما:أن الموت المبكر والمفاجئ لفانون عن عمر قصير يُوجب النظر إلى أعماله التي قدمت منذ عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٠ على أنها أعمال لم يتح الموت المفاجئ لصاحبها باستكمالها.

ويرى باحث آخر[1] أن الجهود الأساسية التي قامت بدراسة رؤى فانون للعنف أما ركزت بمنظور ضيق على فكرة واحدة أو أخرى،مما يفقدها رؤيتها في السياق العام ويُفقد الفكرة ربطها بافتراضاته العامة، وأما على الجانب الآخر تتجه إلى دراستها من منظور واسع إلى الحد الذي يجعلها تمدنا بمفهوم غير ملائم عن قبوله للعنف إلى الدرجة التي يتم فيها الخلط بينه وبين والإرهاب.

وهذا الباحث نفسه وقع في نفس الخلط الذي أشار إليه، فهو يستدعى مقولة فانون (هذا العالم الضيق المليء بالممنوعات يمكن فقط التعامل معه بالعنف المطلق) ويلتقط بدوره كلمة العنف المطلق ويفسرها على أن العنف المطلق يتضمن الإرهاب[2]،ويستطرد قائلا: يرى فانون أنه لكي نمنع الشعب الجزائري من أن يكون هدفا للعنف الواسع الذي يقوم به الفرنسيون فليس هناك خيار غير تبنى أشكال من الإرهاب، والإرهاب كعنف سياسي يؤدى إلى إيذاء المدنيين، هو ضرورة يؤسف لها لتحقيق أهداف وغايات محددة، ويرى من وجهة نظره أن فانون يعطي تبريراً للإرهاب يقوم على افتراض أساسي وهو (الغايات تبرر الوسائل) وعلى هذا فإن الإرهاب يجب النظر إليه في ضوء الأهداف المحددة لبرنامجه كما يرى أن هذا التبرير مقنع بدرجة أو أخرى إلى الحد الذي يوافقه فيه في افتراضه أن الغاية تبرر الوسيلة، ولكنه في موضع آخر يعود فيذكر أن هذا الافتراض هو افتراض قابل للمناقشة، وأن

(1) Michael W. Sonnleitner, "Of Logic and Liberation: Frantz Fanon on Terrorism" ,**Journal of Black Studies**,(London: Sage Publication,Inc Vol. 17, No. 3, Mar., 1987) P. 287.

(2) **Ibid**, P.288

ربط فانون أهدافه في التحرير بالإرهاب هو ربط ضعيف، وينهى بحثه بأن فانون ربما لو امتد به العمر لأصبح أكثر إدراكا لذلك[1].

وبالنظر إلى ما قرره كل من José da Mota-Lopes& Michael W. Sonnleitner من انتقائية لأعمال فانون وعزلها عن السياق العام واعتبارات الزمان والمكان مما عُد قصوراً منهجياً يترتب عليه الوقوع في استنتاجات خاطئة،فإن النظرة المنصفة ترى أن هذه الكيفية في تناول أعمال فانون تتعدى كونها مجرد قصوراً منهجياً خاصة وأن ما تم تجاهله يعتبر من أبجديات البحث العلمي والتي من الصعب تصور أن تغيب عن أي باحث يتحرى الحقيقة، مما يجعل في الإمكان تصور أن ذلك يتم عمدا بغية تشويه أعمال فانون والعمل على تفريغها من مضمونها الثوري،هذا التصور- بعيدا عن تبني فكرة المؤامرة- يجد سنده في أن فانون كان مناضلا يتخذ مواقف نظرية وعملية ضد الاستعمار والهيمنه الأوروبية وأن أفكاره لاقت رواجاً بين زنوج أمريكا و بين الشباب في أوروبا وخارجها[2]،فمن المتوقع أن المراكز الاستعمارية ولها مفكروها ومراكز دراساتها وأبحاثها،تعمل على توظيفها لخدمة أهدافها وتعتمد في ذلك على خلط الحقائق وتزييف الوقائع، ومما يجعل هذا التفسير ليس بعيدا عن الواقع ما نجده من تقييم غير منصف لفانون بوصف أحد الكتاب الأمريكيين له في حديث في جامعة هارفارد بأنه كاتب عديم الأهمية، روّج له سارتر بسبب كراهيته القاتلة للغرب ومناصرته للإرهاب[3]،أو ما يُقرأ لأحد المعلقين بلهجة سيئة عن فانون قائلا (في احد المستشفيات الأمريكية في ديسمبر مات بالسرطان،مولّد من المارتنيك برغم مجهودات الأطباء؛ لإنقاذه .فلماذا سعى إلى الغرب الذي كرهه كثيرا لإطالة حياته)[4].

أو عندما اتهمه Andre Glucksman وهو مأوى سابق في عام ١٩٨٢ بأنه مسؤول عن انتشار الموجة الثانية من العنف التي اجتاحت باريس وقامت بالتفجيرات في أحد شوارعها[5].

(.1) **Ibid**, P.302
(2) David Macey ,**op,cit.**, PP. 20-23.
(3) **Ibid**, P.21.
(4) **Idem.**
(5) **Idem**

هذه الأمثلة تمت الإشارة إليها للتدليل على أن جانبا من النقد الذي وُجه لفانون كان نقدا موجها بغرض شل فاعلية أفكاره أو على الأقل تقليصها،ولأن الدقة العلمية ترفض التعميم فإن هناك جوانب من النقد الذي يتطلب النظر إليه بعين الاعتبار، ومن أمثلته ما ذهب إليه Messay Kebedi [٤] من أن التفسير الأخلاقي للعنف يقف على النقيض من حقيقة أن استخدام القوة لا يمكن شرعنته؛ لأنه يؤسس لحالة الطبيعة(البدائية) في مقابل النظام الإنساني الذي يقوم على أساس من القانون وعلى اعتبار أن النظام الإنساني يبدأ من حيث تنتهي حالة الطبيعة فإن التنازل عن العنف هو ما يفتح الطريق للإبداع الإنساني، ولإدراك فانون لهذا المعنى فإنه حاول أن يستثنى العنف الذي لا يذهب إلى أبعد من شرعية الدفاع عن النفس بدون أن يضعف النظام الإنساني.

وينتقد Messay Kebedi نظرية فانون في العنف من جانبين ، فمن جانب يعتبر العنف الذي يقوم به المستعمَر هو عنف عديم الفاعلية بافتقاده للقوة التي تسنده، فبدون أن يكون العالم الثالث مدعماً بالعلم والتكنولوجيا فإن فكرة أنه يشكل قوة ثورية صاعدة في مواجهة الدول المتقدمة لا تعدوا أن تكون فكرة مضحِكة ؛ لأن عنفه في هذه الحالة هو عنف السهم والرمح في مقابل الصواريخ والطائرات، فبسبب التخلف التكنولوجي فإن عنف العالم الثالث سيواجه بعنف أقوى ويرى اتساقا مع هذه الرؤية أن تضييق الهوة التكنولوجية هو الطريق الأمثل؛ لإنهاء السيطرة الأوروبية وإزالة عقد النقص والدونية. ومن جانب آخر، فهو يتساءل فيما يعنى المخالفة، إذا كان العنف هو نتيجة للحكم الاستعماري ألا تكون مصطلحات مواجهة العنف هي نفسها من صنع العالم الاستعماري،وأن مواجهة العنف الاستعماري بالعنف تعنى أنك تخضع لعقيدة المستعمر وأنك تستجيب له بنفس أسلوبه بينما أن أفضل استجابة هي ألاّ تحاكى المضطهِد؛ لأنك إن فعلت فأنت تستلهم قيمه، كما انه يتشكك في أن للعنف فاعلية علاجية؛ لأنه إذا كان العنف فساداً فإن الموقف الصحيح هو تطهير الروح الإنساني منه فبدلا من تركه ينفجر أو إيجاد متنفساً له، فإن التسامي بالعنف يكون هو العلاج الحقيقي الصحيح،ولتأكيد صوابية مقولته فإنه يستدعى مقولة المهاتما غاندي في قوله:" أنا تعلمت من خبرة قاسية وعبر فترة ثلاثين عاما أن الدرس

(1) Messay Kebede, **op, cit.** P.561.

الأكبر أن أسيطر على غضبي، فكما أن الحفاظ على الحرارة يحولها إلى طاقة، فإن الحفاظ على الغضب والسيطرة عليه تحوله الى قوة لا تقاوم على امتداد العالم".[1]،ويتقد فكرة أن العنف هو سلوك بشرى ويعتبر أن ذلك يبدوا غريبا؛ لأن العنف هو أقرب للسلوك الحيواني منه إلى السلوك الإنساني وأن العنف سيغدوا سلوكاً للمستعمرين يتصرفون من خلاله تجاه بعضهم بعضًا، ويعتقد أن نزعة العنف لها يد في فشل دول العالم الثالث في إقامة مجتمعات ديمقراطية، ويخلص من ذلك إلى أن المقاومة السلمية غير العنيفة لها تأثيرها الواضح في إدانة بربرية المستعمِرين كما أنها ترسم خطاً فاصلاً بين قيم المضطَهِد وقيم التحرير فضلاً عن أن لها دوراً في الإعداد لمستقبل مشرق وديموقراطى حيث لا يكون هناك مكان للقوة وبهذا فإن العنف لا يستخدم ولا حتى في مواجهة المستعمِر، فخيار غاندي السلمي يتخلص الى الأبد من استخدام العنف في المجتمع الإنساني، وينهى فكرة أن العنف مصدر للشرعية. ولكن بعد استدعاء مقولة غاندى حول المقاومة السلمية فإن Kebede يعود ويتساءل: هل لا توجد حالات يكون العنف فيها هو الخيار الوحيد؟ ويضرب لذلك مثلا بالمقاومة ضد النظام النازي ويعتبر أن خيار غاندي السلمي في المقاومة سيكون بمثابة انتحار في مواجهة نظام كالنظام النازي، وحلا لهذا التناقض فهو يرى أن العنف إذا كان خياراً لا يمكن تجنبه، فيجب أن يمارس مع فهم أنه مفروض على الشعب لقصور الخيارات الأخرى،مع إدراك أن نقص الخيارات هذا أمر مختلف عن اعتبار العنف خياراً مثالياً.

عند هذا المستوى نجد أن Kebede بعد رحلة طويلة من النقد والتحليل يعود إلى المربع الأول، حيث أن العنف مفروض وأنه ضرورة حيث لا خيارات بديلة وهو في ذلك يلتقي مع ما يقول به فانون على النحو الذي سبق الإشارة إليه، فهو بذلك يرد ضمنيا على كافة الانتقادات الموجهة إلى فانون ومنها انتقاداته هو نفسه،ويصل إلى تأكيد الخطأ المنهجي الذي سبق الحديث عنه فيما يقوم به دارسي فانون ونقاده من انتقائية لأعماله وعزل بعض من أفكاره عن بعضها الآخر وعن سياقها الزمني والمكاني وعن خبرته وتجاربه الشخصية.

وعن الغاندية ومدى تأثيرها على حركات التحرير الأفريقية فإنه يشير إلى دراسة لعلي مزروعى يبدأ فيها بالتذكير بأن عديد من القادة الأفارقة من أمثال كينيث

(1) Ibid, P.558

كاوندا و جوليوس نيريرى تبنوا أسلوب غاندي السلمي في النضال من أجل الاستقلال ولكنه مع هذا يلاحظ تكاثر حركات حرب العصابات في دول مثل كينيا، الجزائر، روديسيا وأنجولا ويستخلص من ذلك معنى يشير إلى محدودية الغاندية، ويُعيدُ ذلك إلى سببين أحدهما هو وجود الاستعمار الاستيطاني حيث يسيطر البيض والآخر حيث يعتبر الاحتلال أن الدولة المُحتَلة هى امتداد شرعي للوطن الأم (الحالة الجزائرية)، ويؤكد من جهته أن هذه الخيارات العنيفة توضح غلبة فكر فرانز فانون على المهاتما غاندى.

وعن العنف ومستقبل النظم الأفريقية بعد الاستقلال، يقول: إن معظم حركات حرب العصابات التي نجحت في الوصول إلى السلطة أثبتت عدم قدرتها على نشر أنظمة ديموقراطية مستقلة، ويعتبر أن انجولا-زيمبابوى-الجزائر-إريتريا-إثيوبيا أمثلة واضحة على ذلك.

وعلى أية حال فإن وجهة النظر هذه تحتاج إلى مناقشة أبعد مدى من مجرد تفسيرها بهذا التبسيط.

فقضية الخلل الديموقراطى في أنظمة الدول الأفريقية ودول العالم الثالث هي قضية مركبة متعددة الأبعاد لها إلى جانب البعد التاريخي بعدها الاقتصادي ، الاجتماعي، الثقافي والسياسي وبهذا المعنى فإن التفسير الأحادي لها هو نوع من التبسيط المُخِل .